

# الارستقراطية والديمقراطية وتأثيرهما

في المجتمع والادب والتاريخ

عند ما نستعرض مختلف الشخصيات التي عملت على تقدم الفكر وآراء الحضارة وكان لها شأن خطير في تطورات التاريخ واستحالات المجتمع تبهراً قدرة الطبيعة على التوزيع وانتانتها المعجيب في خلق الصور المختلفة وإيجاد الخصائص المتغيرة . فهي لا تخرج بدائعها كآلة العلماء ولا تكرر ابتلاعها تكرر المعاصر . ومن معجزها ان ابتكارها لا يتبدد وتمجيدتها لا تهدد حركته . وهذا التوزيع الدائم في حدود السلالات والانواع من حوافز التطور التي تختلف في عملها العلماء وان كانوا قد اتفقوا على ان هذا التوزيع من اقوى البواعث على تنازع البقاء ، وانه في ترقى الحضارة لا يُسكّر

ولكننا اذا امعنا النظر حريون ان نفع خلال هذا التجديد الدائب قوالب خاصة من الخلائق متناقضة اشد التناقض تشابه في الجوهر والاصل وان كانت تختلف في التفاصيل والنسب . ففي كل زمان ومكان وجد في الدنيا اقدس ازاهد في الحياة والديوي انتهت عليها والشهد الذي يجود بنفسه لمصلحة شاملة و غاية عامة والانا في الذي يجعل نفسه عرض الاجيال وقطب الوجود كما وجد في الحياة الفكرية المثالي والواقعي والصار العقل وعضة الارادة والمتفائلون والمتشائمون . ومن القوالب النفسية الهامة التي وجدت في مشايخ الامم ومتعاقب الاجيال واترت تأثيراً بعيد المدى في تكوين التاريخ وبناء المجتمع الطراز الديمقراطي والطراز الارستقراطي . ولكل طراز من هذين الطرازين عالم خاص من الآداب والافكار والمثاعر تجاه الحياة والمجتمع والعلاقة المتبادلة بينهما تكرر وتتجدد بتتابع الامم وتوالي الايام

ويتنازع الطراز الارستقراطي برديته المعترة بنسبها المغالية بقيمتها وبالجزأة النادرة والتصور على العظام والاهتمام بالكبار واستسهال الصغار وشدة التوق الى الكفاح والمنافسة والرغبة في اقتحام المجاهل والايام بالخوارق ، محدودها الى ذلك طبيعته السليمة وفطرته التوبة وتحويرته الجائفة وهو يمنح لطبيعت الى الراحة والبطالة ويتجنب العمل المنتظم والمجهود المرهق . والبطالة هي حالته الطبيعية كما كانت حالة الانسان في فجر التاريخ وبأكورة الاجتماع . والحقيقة ان كثيراً من صفات الانسان الاولي ابن الغابات المتأبدة والحلوات الابكار الطليق من القيود الخالي من المموم بادية في الطراز الارستقراطي . وشخصية الارستقراطي القوية التي لا يستقر قطلمها القلق ولا يرتوي خلقها الى الاحاسيس تجعله قليل العبر على احتمال مشاق العمل قائراً على كل ما يستدعي

متين الجلد ودائم المنارة ، متجه الميول الى الحياة العنصرية لانها مناط عزيماته وميدان كفاحه  
 وبما يزيد الارستقراطي كراهة للعمل وتصوراً منه ان كل حرفة او مهنة تستلزم اعمالاً  
 خاصة ومجهوداً معيناً ولا يتوفر للانسان لاجدتها الا بعد طول المرانة عليها ومضايقة شدائدها  
 وتعبير النفس مراعاة مقتضيات اي ضرب من ضروب العمل واخذها بمعالجة مشكلاته  
 يستثير في الانسان خواطر واحاسات ملائمة لطبيعة هذا العمل ويخلق جوّاً فكرياً مناسباً له يشوه  
 الشخصية ويحد مدى التفكير . ومن السهل ان تعرف العمل الذي يتعاطاه الانسان من ملامح  
 وجهه واسلوب حديثه وطريقة ايمائه . ولكن الطراز الارستقراطي مع عجزه عن الخضوع  
 لمتطلبات العمل المنتظم والمجهود المتواصل يملك قوة كبيرة وكفاءة خاصة للتوجيه والزمامة  
 وضم متائر الصنوف . وقد ظلت هذه القوة فيه سليمة لم يرتق صفوها العمل ولم تقل شوكتها  
 مطالب الهمة . وقد نبغ من صفوف الطراز الارستقراطي مشاهير الحكام وكبار القواد والزعماء  
 وابطال المخاطرين المعروفين في التاريخ وهم مؤسسو اشهر الاسرات التاريخية وصناع الدول الكبيرة  
 واظهر صفات الرجال من الطراز الارستقراطي القسوة البالغة والضراوة العاتكة والانانية  
 الصريحة والرغبة في فرض ارادتهم وتغليب آرائهم ولكن هذه الانانية الضخمة والاباء المر والخلق  
 الوهر يمكن وراء ستار شفاه من حسن السلوك وجمال المظهر والتهديب الذي لا يشوبه تكلف .  
 وبما يزيد مهابة في الصدور واجلالاً في العيون ترفعهم عن العقائر ومغامراتهم بالحياة في سبيل  
 الجهد والشهرة واثارهم الموت على الهوان والعار . وهم لا يحجزهم رهبة عن الصمد للغاية المرئسة  
 في اذهانهم والمطلب الذي حامت عليه اطماعهم وقل ان يحفظهم التوفيق لان الحياة في حاجة  
 الى هذه البسالة الطويجة التي لا يرقى اليها التردد ولا تدنو منها الرساوس

والطراز الديمقراطي عميق الاحساس بحم الانسانية . وفرط الاحساس يستدعي مراقبة  
 النفس وضعف الثقة بها وكثرة التردد والمعجز عن انتهاب اللذات واقتناص القرص . وهو  
 بطبيعته شديد التعلق بفكرة الواجب كثير الاحترام للآداب والعرف قادر على امتلاك نفسه  
 وقمع ميوله لا يرم بالعمل المنتظم ولا يسأم الحيلة والمنارة . ومن خراس الطراز الديمقراطي  
 التدرية على التجديد والابتكار . اما الطراز الارستقراطي فهو شديد المحافظة عدو للتغيير  
 حرص على ابقاء القديم فهو شديد الميل الى الرجعية . ومن متناقضات الحياة ان من يسموهم  
 الضمفاء والمرضى المستسلمين مع الاحلام والمنحطين وامثالهم من ممثلي ازوج الديمقراطية هم  
 اكبر عوامل الرقي ودواعي التقدم . ومن التواء الرأي وقصور التفكير العمل على اعادة الضمفاء  
 مجارة لسن التطور وتبرعاً بمساعدة الانتخاب الطبيعي بدلاً من ان تركه يسير سيره  
 ويؤدي رسالته . وبما هو جدير بالملاحظة ان القرن التاسع عشر الذي ازدهرت فيه الروح  
 الديمقراطية من احنبل عصور التاريخ بالاختراعات والامكتشافات العلمية . وكل جلائل الحضارة

وبرعات الاختراع ومعجزات الصناعة انما تم على يد المرفى والضعفاء . وذلك لان كل اختراع هو ابن الضرورة والضعة وسبيل الحاجة والفقر ومبنة الشعور بالتقص وذلك الحاجة . والضرورة كما يقولون هي ام الاختراع ومن ثم كان الاختراع وليد الروح الديمقراطية . وقد قضت مخزية القدر ان يكون اشد الناس مقاومة للمخترعات في اول امرها هم الذين يحسون استثمارها عند ما تثبت للتجربة ويدبغ ثمنها . وللارستقراطية مواهب ممتازة في استغلال الظروف وانتهاج النرص واستدرا النفع من مجهود الغير واثك ترى ذلك واضحا كل الوضوح في اوائل تاريخ الاسلام . فقد كان الامويون هم ارستقراطية قرين وسادة مكة فاما ظهر الاسلام خافوه على نفوذهم فقاوموه مقاومة عنيفة فلما باءوا بالخذلان وانتصر الاسلام وتوطد مركزه وقويت مرتبه صانعوا الظروف وداروا مع الايام حتى عنت لهم الفرصة أو عملوا هم على خلق هذه الفرصة وانتزعوا السلطة انتراعاً بالخيطة الواسعة والدهاء البعيد القراروا اشتغلوا الحركة الاسلامية اشد استغلال وهي حركة ديمقراطية في صميمها

وهناك مشابهة بين الطراز الارستقراطي والطراز الاجرامي الذي ينبغ من صفوفه قطاع الطرق وقادة المناسم ورؤساء العصابات ومشاهير السفاحين . ومصدر هذه المشابهة هو ان الغرائز الحيوانية الاولى — غرائز الانسان قبل ان تصقله الحضارة وتعلم وحشيته القوانين — لا تزال في كليهما على قديم عنفوانها وشديد غرامها . وان كان الطراز الارستقراطي طامل بناء على حين ان الطراز الاجرامي من شر عوامل المسلم . ومن الطراز الديمقراطي يظهر النبي والبطل والزاهد لان هذا الطراز دأبه ان يكر فريته وينبذ انانيته ويضحي ببلداته

وقد استلزم وجود هذين الطرازين المختلفين نشوء نوعين من الآداب سارا متجاذبين في التاريخ وتجاورا في كل مجتمع . وهما آداب الارستقراطية وآداب الديمقراطية . فالعروج وتزليج الآمال وجروح المطامع والكبرياء والاحتقار وطبيعة المدوان والقسوة والولوع بيسط النفوذ هي آداب الارستقراطية ومثلها العليا . اما الديمقراطية فن شاكلها التواضع والتقناعة والحلم والاعتدال وحب العدالة والشفقة والميل الى التضحية ونكران الذات

ولست هناك حدود فاصلة بين هذين النوعين من الآداب فن الناس من تقلب عليه الآداب الارستقراطية ومنهم من للآداب الديمقراطية في نفسه النصيب الاوفر ومنهم من يلتقي في نفسه البندان . وفي بعض الازمنة تتصدر آداب الارستقراطية وفي ازمة اخرى تسود آداب الديمقراطية . ومن الشعوب شعوب آداب الارستقراطية اشد تأصلاً في نفسها ومنها شعوب آداب الديمقراطية اين في اخلاقها . وقد كان نيتشه في القرن التاسع عشر اقوى المدافعين عن آداب الارستقراطية حارضة وأعظمهم شاعرية وفي سبيل ذلك حل على المسيحية حلت الشعواء واستنزل عليها صواعق غضبه . كما كان طولستوي اعف المدافعين عن آداب الديمقراطية

مقصداً وأعمقهم احساساً وأصحهم ادراكاً لجمال الديانة المسيحية وسمو تعاليمها  
وكما أثر هذان الطرازان في الآداب كذلك أحدثنا تأثيراً بعيد المدى في علم السياسة وأنظمة  
الحكم إذ انبعثت منهما نظرتان طال بينهما الصراع . وهما نظرية عدم المساواة في الحكم  
وهي النظرية الارستقراطية . ونظرية المساواة وهي النظرية الديمقراطية

وصحة التفوق والتبالة البادية في الطراز الارستقراطي هي التي قام عليها احترام طبقات  
الفلاحين والفقراء لهم واعتقادهم أنهم سادتهم بلا منازع وأنهم يختلفون عنهم دماً . وهذه  
العتيدة مكنت الارستقراطية من تقرير سلطتها والاحتفاظ بمكانتها مدة طويلة . ومن ثم  
نشأت فكرة العاطفة المتبينة من جهة والطاعة العمياء من جهة اخرى ورسخ في النفوس  
الاعتقاد الذي لاحظته بوكفيل وهو اعتبار ان الذين يتبدون بنا لا بد ان يكونوا افضل منا .  
وقد وجه عطاه الانبياء مثل بوذا والمسيح ومحمد اكبر نقد للنظرية الارستقراطية وأدركوا  
بخطايرهم المنهمة ونظراتهم النافذة ووقفهم على اسرار القلوب وخفايا النفوس ان هذا  
الاختلاف والتفاوت مقصور على النسب والمقادير وانه لا يمس الجوهر فهو يتفاضل ويقضى  
ازاء الوحدة الروحية التي تضم الجميع

وعلى الاعتراف بالعجز من جانب الديمقراطية وحرص الارستقراطية على السيطرة والاستعلاء  
قامت السلطة الارستقراطية وتوطدت واستغلظ لعرها وتقلت على النفوس وطأها وكبت  
العقل واسرفت في الظلم والتعسف ومسخت في النفوس الحامسة الاخلاقية لأن احتقار فكرة  
المساواة يقب الاحرام ذلة ومكينة ويحيل الاجلال والتقدير عبودية وضبعة ويفري النبلاء  
بالافراط في الكبرياء والطمع والامتنان والاسترسال مع جامع الشهوة وساقط الزوات ويمهد السبل  
لاغناء فكرة ان الشعب وسيلة وليس غاية وانه سلم لما رب الارستقراطي وآلة للتسخير  
وأشد ما يؤخذ على الارستقراطية حرصها على استبقاء جهل الجماهير وحرمان الشعب من  
نور الفكر والرفقان وقد قاومت الارستقراطية في اغلب العصور تلامي الشعب الفكري  
وتروعه الروحي وتطلعه الى الحقيقة . ففي اميركا كان من المحرم تعليم العبيد معرفة القراءة  
والكتابة . وكثيراً ما حارت الارستقراطية ان توقف نزوع البشر وطموحهم وتمهبط  
بالروح الانسانية . والحقيقة انه لا ينتظر من الارستقراطية ان تعمل على تهذيب مدارك  
الشعب وشحن ذكائه ورياضة أخلاقه ورفع مستواه الفكري لانها لم تنم في الاصل على  
التفوق الفكري وانما قامت على القوة العضوية والفرارز الارضية . وأحفاد الارستقراطي  
وذريته الذين يؤنون عنه المجد والشهرة انما يتفرون على سائر الناس بالقوة العضوية لنشاطهم  
في بيئة اكثر ملاءمة للصحة وتيسر الغذاء الصالح . وبالخلق المتين لان حرصهم على مكانة  
الامرة والمحافظة على تعاليمها يشعروهم باتصال حياتهم بحياة اجدادهم السالفين وابنائهم القادمين .

وهذا الضمور يجعلهم يخشون العار ويحسرون بدوافع الجهد ويقدررون المسؤولية الملقاة على عواتقهم . ولكن الذكاء والقدرة على التفكير لا تتطلب سمو المنشأ ونبالة الاصل والعبقرية لا تورث . والارستقراطية تقدر قوة الفكر وتحشاهاء ، لانها لا تمكك السيطرة عنها وهذا الخوف من سطوة الفكر انما للارستقراطية الكثير من المصاعب وصيرها غير قابلة لمستحدث الافكار قليلة النغمة لتوازع الروح لا تعلم متى تضع حدا لاستبدادها وهذا هو مرثثورات الخطيرة التي سجلها التاريخ ومن اشهرها الثورة الفرنسية

ولا نزاع في ان الارستقراطية تقدم للعالم نماذج جذابة من النمو والبهاء ونبالة الاخلاق والشجاعة وهي خير من يضع الاساس لابتناء مجد الامم ولكنها سرعان ما تصبح حجر عثرة في سبيل التقدم وحرية الفكر

وانظام الديمقراطية اكثر ملاءمة لحياة الفكر وحفز الهمة . لان الحياة بين النظراء توسع الروح وتفتح المواهب وتردعي الانسان ثقته بنفسه . أما الحياة في الانظمة الارستقراطية فانها تعري النفس بالتراجع والانكماش وتوهن الملكات وتعطل المواهب وتحمز الضمور بالكرامة البشرية . ووقوف الانسان في مكائيف الظلال يفت في عضده ويحلل من بأسه ولا خلاف في ان هناك اتزاداً ممتازين يستطيعون اكتساح هذه العقبات ولكن المسألة ليست مسألة افراد مصدودين وانما مسألة العند الاكبر من البشرية الذين لم يتفوقوا في المواهب والهلم والذين يتطلبون سماحة الظروف ومساعدة الاقدار. فان امثال هؤلاء عند ما يبصرون امامهم بناء مشخراً وعظمة باسقة يرتد طرفهم حبيراً وتضؤل نفوسهم وتنتلم عزيتهم وتستولى عليهم الرهبة والياس . وقد لاحظتوكفيل ان جبهة الشعب في الامم الارستقراطية اكثر تحلقاً في مدارج الحضارة من غيرهم في الامم الاخرى والسري في ذلك شعورهم الشديد بالتفاوت بينهم وبين الاشراف وبأسهم من ادراك العلى وتنعم الجهد

ويرى المفكر في سير التاريخ ان هذين الطرازين لازمان لا طراد الحضارة وبقي المجتمع . لان بقاء الحضارة يقوم على عاملين لا مفر من المحافظة على التوازن بينهما . وهما العامل الانساني الذي تتكفل به الديمقراطية والعامل الحيواني الذي تقوم به الارستقراطية . وهذا الصراع الطويل المضني بين فكرة المساواة وفكرة عدم المساواة هو الذي يربط عن المجتمع من الحين إلى الحين وخامة الركود وغبار الجورود ويعمر انقلاب بالامل وينفعهما إلى الاقدام والعمل

علي ادم

القاهرة

اهم المصادر التي رجعت اليها عند كتابة هذا المقال :

- (1) On the Tracks of Life. By Sera.
- (2) The Conventional Lies of Our Civilization. By M. Nordau.
- (3) Civilization & Progress. By Crozier.